الاشكالات الدلالية في ترجمة القرآن الكريم

د. منجد "محمّد رضوان" أحمد أبوبكر *

(*) أستاذ مساعد بقسم الدراسات الشرعية – جامعة ٢٩ مايو – إسطنبول – تركيا

ملخص البحث:

يهدف البحث لجسر الهُوة بين العَجَم ودراسة القرآن الكريم ، من خلال الترجمة الحرفية ما أمكن السبيل إلى ذلك ، عبر تقسيم القرآن الكريم لقسمين :

الأول : ما يقبل الترجمة الحرفية مما ليس في نقله إشكالات دلالية .

الثاني : ما لا يقبلها .

وضرورة أن يتركز جهد الباحثين المتخصصين بعلوم اللغات ، فضلاً عن علوم التفسير على الأول منهما ، ليتمكن جمهور المسلمين الأكبر– وهم العجم – من التواصل مع كتاب الله تعالى ، دون وساطة مُترجمٍ يتحكم بالنص ، بحسب فهمه ومستواه الثقافي ، مع مراعاة الضوابط والقواعد اللازمة لذلك ، والتأكيد على أن المُترجم ليس قرآناً .

المقدمة

الحمد لله الملك الوهاب ، رب الأرباب ، ومجري السحاب ، وهازم الأحزاب ، والصلاة والسلام على النبي المهاب ، ذي الدعاء المجاب ، والمعاجز العجاب ، وبعد .

فإن الناظر في أحوال عوام المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها – لاسيما العجم منهم – يجد ضرورة أن نبني جسوراً وثيقة بينهم وبين كتاب الله تعالى ، يطالعونه وينظرون في خطاباته لهم بعيون رؤوسهم ، وبما تملكه عقولهم من قدرة على الإدراك والفهم ، دون حاجة لوسيط بينهم وبين الله ، وإن – على الأقل – في مرحلة من مراحل المطالعة والنظر ، ولعل فكرة بحثي هذا قامت من أجل هذه الغاية ؛ ولجسر الهوة نظرياً بين المتخصصين في اللغات الحاذقين وبين تحقيق هذه الغاية السامية وإعادة النظر في الترجمات السابقة دونما شعور بحرج من مأثم أو مغرم ؛إذ الأمر محل نظر العلماء في القديم والحاضر ولقد نظرت لما كتبه الشيخ مصطفى صبري رحمه الله تعالى تحت عنوان (مسألة ترجمة القرآن)[1] ردا على مقالة للشيخ محمد مصطفى المراغي ، نشرها في جريدة الأهرام المصرية ، ومقالة أخرى للأستاذ فريد وجدي ، نشرها في الأهرام والمقطم. يدعوان فيهما للترجمة الحرفية للقرآن الكريم مع تفريقه بين الرجلين في المنطلق والخلفيات الفكرية والأسلوب في الطرح والاستدلال ، لكن يلاحظ على الشيخ صبري رحمه الله تعالى في بحثه شدة الانفعال والتأثر ؛ نتيجة التحول الفكري والأيديولوجي في عاصمة دولة الخلافة ، حيث تحولت إلى التتريك في كل شيء بل وفي أذانها وتلاوة القرآن الكريم في الصلاة ، فضلاً عن إلغاء الكتابة بالحرف العربي وغير ذلك ، مما جعل ردة الفعل قوية في مناقشاته فجعل – في المحصلة – الشيخ المراغي والأستاذ فريد وجدي في فسطاط واحد على اعتبار كون النتيجة من مقاليهما واحدة ، لا ينبغي أن ينكر ما كان من حالة الدهشة في صفوف

(١) مسألة ترجمة القرآن ، الشيخ مصطفى صبري ، ولم أتمكن من الاطلاع على مقالتي الأستاذين المراغي وفريد وجدي إلا ما ضمنه الشيخ صبري في كتابه من النقول عنهما وهو كثير ، وعبر عن وجهة النظر التي يتبنيانها .

المثقفين والمفكرين العرب حيال التغيرات التركية وعدم وضوح الرؤية لدى الكثيرين منهم ، لكنني لا أجد مساغا للنتيجة التي وصل إليها الشيخ صبري أفندي ،وإمرار البصر على عجل في كتابه كاف لتبين مقدار ذلك التوجس من الانجرار للحالة التركية والمؤامرة على القرآن ولغته ؛ مما دفعه للقسوة على مخالفيه واعتبار الرأي الذي يدعو إليه الشيخ المراغي صدى لأصوات الناعقين من الحداثيين في العواصم الإسلامية ، وإن كان ما ذهب إليه يحتاج للمزيد من التأمل والنظر .

لقد كانت عنايتي في بحثي ببيان إمكان الترجمة من خلال واقع النبي صلى الله عليه وسلم وتطبيقاته ، ثم من خلال النظر العقلي والتحليلي لتلك الإمكانات ، مع وضع بعض الضوابط العملية لنقل النص المقدس ، حيث جاء البحث في مطلبين ضمنت الثاني منهما النتيجة والخاتمة .

والحمد لله رب العالمين

المطلب الأول : ترجمة القرآن الكريم ،دراسة تاريخية تحليلية

إن التاريخ النبوي حافل بالمراسلات مع غير المسلمين لا سيما العجم منهم وفي مقدمهم الملوك والرؤساء ، إذ ثبت إرسال دحية بن خليفة الكلبي لهرقل الروم[١] ، وعبد الله بن حذافة السهمي لكسرى الفرس[٢] ، وحاطب بن أبي بلتعة للمقوقس صاحب مصر[٣] وعمرو بن أمية الضمري للنجاشي في الحبشة[٤][٥] ، فضلا عما كان من مراسلات بين النبي صلى الله عليه وسلم واليهود ،مما دفعه صلى الله عليه وسلم لتكليف زيد بن ثابت ليتعلم اللغة العبرية[٦] ، ومعلوم أن الرسائل النبوية لم تخل من نصوص قرآنية ، لا سيما ما كان للنصارى كهرقل والمقوقس والنجاشي كما ثبت في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم خاطب هرقل فقال له :((**بسم الله الرحمن الرحيم** من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع ، الهدى أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ،و﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي (١/ ٧) .

(٢) صحيح البخاري ، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر (١٣/ ٣٣٦)

(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٣٣٩) .

(٤) المسند للإمام أحمد ، باب حديث عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم (٤/ ١٩٨) وعلق عليه شعيب الأرنؤوط فقال : حديث حسن ، وكان إرساله رضي الله عنه لتتبع أحوال الصحابة الذين هاجروا إليها وتأمينهم ، وكان هذا الكتاب الثاني حيث كان الأول مع المهاجرين وعلى رأسهم جعفر، هذا فضلا عما كان من محاورات بين المهاجرين والنجاشي سنأتي إليها لاحقا .

(٥) ولمن يريد أن يستزيد سيجد التفصيل عن الرسل الأربعة وجهة كل منهم ونص رسالته في كتب التاريخ مثل : تاريخ الأمم والملوك للطبري (٢/ ٢١٢) ، الكامل في التاريخ لابن الأثير (١/ ٣١٦) ، البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٣٠٢) وسواها من المصادر .

(٦) عن زيد بن ثابت –رضي الله عنه– قال: «أمرني رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فتعلمت له كتاب يهود، وقال: (إني –والله– ما آمن يهود على كتابي)، فتعلمته فلم يمر بي إلا نصف شهر حتى حذقته، فكنت أكتب له إذا كتب، وأقرأ له إذا كتب إليه» رواه أبو داود ، باب رواية حديث أهل الكتاب (٣/ ٣٥٦) وصححه الألباني في السلسلة (٨/ ١٤٥)، تاريخ الأمم والملوك للطبري (٢/ ٢٣١) وفي بعض المصادر أنه تعلم السريانية ، وقيل تعلم اللسانين ، فتح الباري لابن حجر باب قوله ترجمة الحكام (١٣/ ١٨٦) ، مختصر تاريخ دمشق لمحمد بن مكرم بن منظور (٣/ ٢٢٤).

تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران:٦٤)[١]، ومعلوم أيضا أن هرقل وكسرى والمقوقس والنجاشي لم يكونوا ناطقين باللسان العربي[٢] .

أما ما يدل على عدم معرفة هرقل باللسان العربي فهو ما ثبت في الصحيحين أن هرقل عندما أراد أن يسأل أبا سفيان عن النبي صلى الله عليه وسلم بعد بلوغه رسالته دعا بترجمان يتقن العربية[٣] ، كما لم يثبت أن دحية بن خليفة رضي الله عنه كان يعرف لسان الروم[٤] ،ولئن كان فليس هو من دفع بالكتاب لهرقل بشكل مباشر أصلاً ، إنما دفعه لعظيم بصرى ، والأخير هو من تولى تبليغ الكتاب لهرقل .

أما المقوقس[٥] فكذلك لم يكن على معرفة باللسان العربي وكذلك غالب عظماء الروم والفرس وسواهم من العجم ؛ ذلك أن العرب كانوا ضعفاء مُنكَرين في عيونهم ،ولغتهم تبعا لهم ،فلم تكن من اللغات التي يحتفى بها عند غير العرب ،ويدل لذلك ما رواه ابن حبان عن عمرو بن العاص قال :(خرج جيش من المسلمين أنا أميرهم حتى نزلنا الإسكندرية فقال عظيم من عظمائهم : أخرجوا إلي رجلا يكلمني وأكلمه فقلت :لا يخرج إليه غيري فخرجت ومعي ترجماني ومعه ترجمانه حتى وضع لنا منبر ...)[٦] والظاهر أنه المقوقس أو أقرب مستشاريه بدليل الحوار الذي دار بينه وبين عمرو بن العاص رضي الله عنه وردوده عليه إذ يظهر أنه صاحب علم وسلطة وفاعل بأمر

---

(١) صحيح البخاري كتاب بدء الوحي (٧/١) .

(٢) أرجأت الحديث عن النجاشي للمطلب الثاني حيث سأتناوله بتوسع أكبر .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي (٧/١) ، صحيح مسلم ، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل يدعوه للإسلام (٥ / ١٣٦).

(٤) ولقد تتبعت كتب الحديث والتاريخ والرجال فلم أعثر على ما يدل على شيء في هذا الباب ، مع العلم أن معرفة الصحابة بأي لسان غير عربي مما كان يحتفى به ويذيع صيته ، ومثل هذا الشأن ما كان له أن يظل سراً ، أما سبب اختياره للمهمة فهو وضاءته وجمال هيئته وهو ما تهتم له الروم كثيرا .

(٥) البطرك جريج بن مينا الرومي المعروف بلقب المقوقس وهو الحاكم البيزنطي لمصر وعاصمته الإسكندرية في فترة ما قبل وأثناء الفتح الإسلامي لمصر ويعرف بعظيم القبط وإن لم يكن قبطيا لكونه كان الحاكم عليهم ، البداية والنهاية لابن كثير (٤ / ٣١٠) بتصرف يسير .

(٦) صحيح ابن حبان بتحقيق شعيب الأرنؤوط (١٤ / ٥٢٢) .

نفسه ، حتى قال فيه عمرو بعد الحوار :(فما كلمت رجلا قط أمكر منه)[1] ،وكذلك كان المقوقس في حواره مع حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه ، فلقد كان ذكيا وماكراً ، فهو الوحيد الذي كان في غاية الإكرام لرسول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل وقبَّل الكتاب الذي بعثه إليه ،وهو من أرسل أعظم الهدايا للنبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى رأسها : مارية القبطية رضي الله عنها ، وإن كان لم يعتنق الإسلام ،وهو من قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم مشيراً لمكره :((ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه))[2] ،وأكثر ما يدل على عدم عرفانه باللسان العربي : ما ورد عنه حين أراد أن يرسل جواباً على كتاب النبي صلى الله عليه وسلم استدعى كاتباً يعرف العربية ليترجم عنه ويكتب ،كما في ذات الرواية المشار إليها في النص ،وسنجد عند التدقيق أن القوم لا يذكرون الترجمان في غالب الروايات التي تتعلق بتواصل العرب مع العجم لا سيما في مراسلات كبار القوم وعليتهم ؛ احتراما لقدرهم لأنه أمر بدهي ولا يحتاج للتنويه ،أما كسرى الفرس : فكذلك كسابقَيه ؛إذ ثبت في الروايات أنه أمر بكاتب له يعرف العربية ليقرأ له الكتاب الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم مع عبد الله بن حذافة السهمي[3] ،والذي كان اختياره دون سواه لكونه خبيراً بالفرس وكان يتردد عليهم كثيراً ويختلف إلى بلادهم[4] .

إذن ، كانت هناك رسائل بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين العجم الذين لا يعرفون اللسان العربي ،وخاطبهم بنصوص من القرآن الكريم ،ولم يكن الصحابة الذين اختارهم النبي صلى الله عليه وسلم –غالباً– على علم بلغات القوم ،فإن أسئلة ملحة جداً تنهض أمام الباحث وتعترض له ،ومنها :كيف ترجم النص المقدس للغات الأخرى ؟وهل كانت ترجمة حرفية أو تفسيرية ؟وهل حذر النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة من الترجمة الحرفية ؟ لا سيما أن الدولة الإسلامية أخذت في التوسع والتواصل مع

---

(١) المرجع السابق .
(٢) نصب الراية لأحاديث الهداية للزيلعي (٤/ ٤٢٢) .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٣٠٦) .
(٤) الروض الأنف (٤/ ١٠٥) .

غير العرب لنشر الدين بينهم وتعريفهم بالكتاب والسنة . ثم هل كان هناك انتقاء للنص المراد ترجمته للعجم ؟ أم أن الأمر كيفما اتفق ؟ وهل الترجمة الحرفية تقتضي أن نعد المترجم قرآنا ،لا سيما في مخاطبة العجم ؟ وهل العجم معنيون بالإعجاز البياني والبلاغي في القرآن الكريم ،أم هل يصح الاكتفاء بالتعاليم والأحكام والأخلاق مجردة ؟ وهل الترجمة الحرفية تذهب بكل صور الإعجاز في القرآن الكريم كالغيبي والعلمي والاجتماعي والاقتصادي وغيرها ؟ وهل يمكن تقسيم القرآن الكريم إلى قسمين من حيث القدرة على الترجمة الحرفية :الممكن والممتنع ؟ وإن كانت الإجابة بنعم ،ففي أي القسمين يندرج القصص القرآني في غالبه – مثلاً – وهو كم كبير من القرآن الكريم ؟ ثم أخيراً أصل للسؤال الأهم ، وهو :ما حجم الإشكالات الدلالية والأسلوبية في كل احتمال؟ وقبل الرد على هذه الأسئلة لابد من بيان أمور في غاية الأهمية لتوطئ لنا الإجابات ،ومن أهمها : هو أن الجملة في اللغة العربية لها دلالتان :أصلية وتابعة ،وهذا ينسحب على القرآن الكريم.

قال الشاطبي :((للغة العربية من حيث هي ألفاظ دالة على معان نظران :أحدهما :من جهة كونها ألفاظا وعبارات مطلقة، دالة على معان مطلقة، وهي الدلالة الأصلية . والثاني :من جهة كونها ألفاظا وعبارات مقيدة دالة على معان خادمة ،وهي الدلالة التابعة))[1] . وغالبا ما يكون المقصود من الكلام الدلالة الأصلية ،لذلك اتفق العلماء على أن الأحكام الشرعية تستفاد من الدلالة الأصلية الظاهرة للنصوص الشرعية ،قال الشاطبي : ((من الواجب أن ينظر في الوجه الذي تستفاد منه الأحكام ،وهل يختص بجهة المعنى الأصلي ،أو يعم الجهتين معا ؟ أما جهة المعنى الأصلي فلا إشكال في صحة اعتبارها في الدلالة على الأحكام بإطلاق ،ولا يسع فيه خلاف على حال ،ومثال ذلك صيغ الأوامر والنواهي ،والعمومات والخصوصات ،وما أشبه ذلك مجرداً من القرائن الصارفة لها عن مقتضى الوضع الأول))[2]،واختلفوا في جواز

(١) الموافقات للشاطبي (٢/ ١٠٥) .
(٢) المرجع السابق (٢/ ١٥١) .

استنباط بعضها من الدلالات التابعة ،وإليك ما نص عليه الشاطبي بعد ذكر الخلاف بين العلماء على إمكان استفادة الأحكام من جهة المعاني التابعة :((قد تبين تعارض الأدلة في المسألة ،وظهر أن الأقوى من الجهتين جهة المانعين ،فاقتضى الحال أن الجهة الثانية وهي الدالة على المعنى التبعي لا دلالة لها على حكم شرعي زائد ألبتة))[1] .

كما ينبغي أن ننوه إلى قضية مهمة جداً ، وهي : أن القرآن الكريم هو ذلك النص الذي نتلوه من كلام الله تعالى المنزل على نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم ،سواء أتحقق للتالي الفهم لما يتلوه أم لا ، وأن ذلك لا يغض من قرآنية ما يتلو[2] ،و أن ما يتحقق من الهداية للسواد الغالب من المسلمين ليس بمجرد مرور أبصارهم علي الآيات القرآنية أو لتلك البلاغة القرآنية التي يدركونها حال تلاوتهم ؛لأنهم لا يتوصلون للإعجاز البياني المخبوء في النص بسلائقهم إذ دخول العجمة على العرب حائل بينهم وبين إدراك الإعجاز بالذوق أو زيادة الإيمان بسبب ذلك الإدراك ،ولعل ما سيدركه العجم من النص القرآني حال ترجمته[3] لهم عين ما يدركه العرب منه عند تلاوته ،على تفاوت بحسب ملكات وقدرات كل منهم .

ولا يخفى أنه لئن كانت تلاوة القرآن الكريم عبادة مهمة جدا فإن العبادة الأهم هي بيان القرآن وفهمه ،وليست التلاوة والحفظ إلا وسيلة لذلك المقصد الأهم ليكون من بعده التطبيق ،لذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر:١٧) ،وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد:٢٤) ،كما ثبت عن أبي الدرداء أنه قال :(كنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم فشخص ببصره إلى السماء ثم قال :((هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء)) فقال زياد بن لبيد الأنصاري كيف يختلس العلم منا وقد قرأنا القرآن فوالله لنقرأنه ولنقرئنه نساءنا وأبناءنا ، فقال :((ثكلتك أمك يا زياد إن كنت لأعدك من فقهاء أهل

---

(١) المرجع السابق (٢/ ١٥١) .

(٢) وقولي هذا تحسبا حتى لا يظن أني أقول بأن القرآن هو المعاني والدلالات ، وهذا ما رمي به الأمام أبو حنيفة رضي الله عنه وهو منه براء.

(٣) وأقصد هنا الترجمة الحرفية المعتبرة من قبل لجنة خبراء عالمين باللغتين الناقلة والمنقولة

المدينة هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم))[1]. والآيات والأحاديث في الباب كثيرة جداً ، غير أن المفهوم العام لها يؤكد أن القيمة العليا هي لإدراك مقاصد القرآن الكريم ،بل لعلنا لا نجد نصاً واحداً صريحاً في القرآن الكريم يأمر بحفظه ،ويؤكد هذا أن عدد الحفظة من الصحابة قليل ، كما ينبغي الإشارة إلى أن إرسال الرسل من لوازم إقامة الحجة على الناس لبيان مراد الله تعالى من كتبه[2] ،ولو نزل القرآن من غير شارح وموضح له لبقيت أجزاء منه ألغازاً بلا حلول : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٤٤) .

ومما تجدر الإشارة إليه أيضا : هو أن الترجمة الحرفية مثل التفسير الكلمي[3] للقرآن الكريم من حيث كونها تعبيرا عن مراد الله تعالى بكلمات بديلة أكثر وضوحا وأسهل مأخذا ،غير أن التفسير باللغة العربية والترجمة بسواها ، وهذا ما ندركه من عبارة الشاطبي وهو ينقل عن ابن قتيبة : (وقد نفى ابن قتيبة إمكان الترجمة في القرآن – يعني على هذا الوجه الثاني – فأما على الوجه الأول ،فهو ممكن ،ومن جهته صح تفسير القرآن وبيان معناه للعامة ومن ليس له فهم يقوى على تحصيل معانيه ،وكان ذلك جائزا باتفاق أهل الإسلام ،فصار هذا الاتفاق حجة في صحة الترجمة على المعنى الأصلي)[4]،بل ربما كانت الترجمة الحرفية – لاسيما إذا كانت من متخصصين

---

(١) سنن الترمذي ، باب ذهاب العلم (٥ / ٣١) ، صححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (١٥٣/٦) .

(٢) ولا أقصد أنه يجب على الله تعالى إرسال الرسل كما قالت المعتزلة ، بل هو مضمون قوله تعالى : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما «(النساء:١٦٦) .

(٣) وهو التفسير الموجز الذي يستبدل كلمة بكلمة مثل (كلمات القرآن تفسير و بيان) لحسنين محمد مخلوف .

(٤) الموافقات (١٠٧/٢) ، والمقصود جواز الترجمة الحرفية بحسب الوجه الأول ، وامتناعها بحسب الثاني ، والنقل من كتاب تأويل مشكل القرآن الكريم لابن قتيبة ، باب ذكر العرب و ما خصّهم الله به من العارضة و البيان و اتّساع المجاز ص ٢٢ ، وعند النظر في كلام ابن قتيبة لا نجده يصرح بالذي فهمه الشاطبي بل على العكس من ذلك ،وهذا ظاهر في عنوان الباب ، وإليك عبارة ابن قتيبة ((وبكل هذه المذاهب – يقصد أبواب المجاز والاستعارة – نزل القرآن ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة ، كما نقل الإنجيل عن السّريانية إلى الحبشيّة والرّومية ، وترجمت التوراة والزبور ، وسائر كتب الله تعالى بالعربية ، لأن العجم لم تتّسع في المجاز اتّساع العرب.)) ولعل عذر الشاطبي أن ابن

خبراء باللغتين الناقلة والمنقولة – أقل إشكالا ؛لأن مساحة التصرف لدى المفسر أكبر بكثير منها لدى المترجم ؛ إذ المفسر يُثبت ما فهم من النص ،أما المترجم فيتحرى الدقة في نقل النص كما هو لا كما يفهمه[1] .

وبعد هذه الملحوظات الهامة نعود لنجيب عن الأسئلة السالفة ،وأول هذه الأسئلة :

كيف ترجم النص القرآني ؟ إننا عند التدقيق في كتب السنة والسيرة والتاريخ لا نجد نقلاً لأصل الحوارات التي دارت بين العرب بصورة عامة ورسل النبي صلى الله عليه وسلم ، خصوصا وبين العجم ، فلا نجد أي إشارة لعملية الترجمة أو إثباتا للنصوص والمتون في اللغة الناقلة والمنقولة ،كما في حوار هرقل مع أبي سفيان إذ بلغنا ما قاله أبو سفيان لكن لم يبلغنا كيف ترجم للرومية ،كما لم يبلغنا ما قاله هرقل باللغة المنقولة قبل ترجمته للعربية ،وقل مثل ذلك في حوار عمرو بن العاص مع عظيم القبط أو المحادثات بين حاطب بن أبي بلتعة والمقوقس ،وكذلك ما كان بين النبي صلى الله عليه وسلم ويهود من مخاطبات والتي كان يعتني بترجمتها زيد بن ثابت ،وهذا الأمر يعد واحداً من جملة الاتفاقات البشرية في توثيق مثل هكذا أمور ،وكما نقبل رواية الآحاد وكثيرا ما تكون بالمعنى ، فإنه ينبغي أن نقبل مثل هذه النقولات ؛إذ الرواية بالمعنى صورة من صور الترجمة ، غير أنها بنفس اللغة ، ووجه شبهها بالتفسير كبير[2] ،والأنبياء مترجمون لما يوحى إليهم من ربهم في صورة السنة ونأخذ أقوالهم بالتسليم ،وهم يُرسلون أفراداً لأقوامهم تعليماً لهم لقبول خبر الواحد ،وهذا ما اتفق عليه أهل العلم ،قال الشافعي في الرسالة :(ولو جاز لأحد من الناس أن يقول في علم

قتيبة تحدث عن عدم إمكان ترجمة النصوص التي تضمنت المجازات والاستعارات ، ومثل لذلك بثلاث آيات ، وكأن في الكلام إشارة إلى إمكانها في سواها من النصوص الخالية من تلك الأبواب مع العلم أن ابن قتيبة لم يقسم الكلام من حيث دلالته كما قسمه الشاطبي .

(١) مع التأكيد على عدم قرآنيته ، غير أنه ينبغي أن يحظى بالإجلال والتقديس ، إذ تجوز الصلاة به للعاجز عن العربية وغير القادر عليها كما نص على ذلك الحنفية في مذهبهم ، المبسوط للسرخسي كتاب الصلاة ، باب افتتاح الصلاة (١/٩٧).

(٢) ولقد أسلفنا المقاربة التي ذكرها الشاطبي بين التفسير والترجمة واستدلاله بجواز الترجمة قياسا على التفسير .

الخاصة :أجمع المسلمون قديماً وحديثاً على تثبيت خبر الواحد والانتهاء إليه ،بأنه لم يعلم من فقهاء المسلمين أحد إلا وقد ثبته جاز لي)[1] ،وهذا ما نجد تطبيقه عمليا في الترجمة الفورية لخطابات الساسة عبر الفضائيات ،وقبل ذلك ما كان من نقل للعلوم والكتب وترجمتها ،بله ترجمة الكتب المقدسة ، كالتوراة والإنجيل ،وهي – غالباً – داخلة في باب خبر الواحد ، ولم نجد ثمة معترض .

أما عن طريقة الترجمة ؛ أكانت حرفية أم تفسيرية ،فكذلك لا نجد ما يؤكد قولاً بلا مناكدة ،غير أن ما يطمئن له القلب : أنها كانت ترجمة حرفية ؛إذ كانت في غالبها ترجمة فورية مباشرة بعد سماع الترجمان للنص ،وإن لم يكن قد اطلع عليه سابقاً أو أحاط بدقائقه وأمعن النظر في تفاصيله ؛ كي يتسنى له التصرف أو التبديل ،كما أنه لا يُقدِّر النصوص القرآنية حق قدرها ليعاملها بخصوصية أو إجلال ،فضلا عن كونه غير قادر على التفريق بين القرآن وسواه ،ينضاف لهذا أننا لا نجد نصاً نبوياً واحداً يحذر من الترجمة الحرفية ،أو توجيهاً منه لرسله أن يفرقوا بين النص القرآني والنبوي ، لا سيما أننا لا نجد في نص الخطاب لهرقل – كما نقلناه سابقاً – عبارة قبل الآية تدل على أنها نص قرآني لتفرقها عن كلام النبي صلى الله عليه وسلم كقول :قال تعالى ،أو جاء في القرآن الكريم ، أو سوى ذلك ،بل عند رجع البصر كرة أخرى سنجد أنه يفصل بين كلامه والآية الكريمة بحرف الواو (و) ، وكأنها من جملة كلامه[2] صلى الله عليه

---

(١) الرسالة للشافعي ص٤٥٧ ، وتجد علماء الأمة على هذا القول ، ويمكن الرجوع مثلاً للإمام ابن عبد البر في كتابه التمهيد (٨/١) ، والإمام ابن القيم في كتابه الصواعق المرسلة ص ٧٧٥ ، والقائمة تطول كما هو معلوم في علم الأصول ، وفقهاء الحنفية يكتفون بترجمان واحد ، كما صرح بذلك ابن عابدين في حاشية رد المحتار على الدر المختار فقال : (يكفي العدل الواحد للتزكية والترجمة والرسالة ؛ لأنها خبر)(٩٢/٧) ، أما عند الشافعية والحنابلة فلا يقبلون إلا بترجمانين لأنها شهادة ، ولهم في ذلك ضوابط ، وترجم البخاري في صحيحة باباً بعنوان : باب ترجمة الحكام وهل يجوز ترجمان واحد ، وكأنه يرى ذلك ، ولعل فعل النبي صلى الله عليه وسلم بأمره لزيد بن ثابت وحده ، ثم الواقع يؤيد الحنفية ، والله تعالى أعلم .

(٢) جاء في نص الرسالة كما في البخاري ومسلم : (....فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ، و» قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ... «)) ، وقد سبق تخريج الحديث .

وسلم ،ولعل في هذه الدقيقة إشارة لجواز الترجمة وحق العجم بالاطلاع على كلام الله تعالى كما هو من غير تصرف مفسر أو تدخل مؤول ،وكما أن السواد الأكبر من العرب لا يستغني بكلام المفسرين عن مطالعة كلام الله تعالى ومباشرته وإن كان لا يدرك جماً من مراداته بمعزل عن تفسيرهم ،فإنه يحق للعجم مطالعة كلام الله تعالى سواء بسواء، ولا يجوز لأحد من الناس أن يحول بينهم وبين هذا الحق ؛ذلك أنه ما من مفسر إلا ويلقي بظلال شخصيته على تفسيره ، ويصبغه بثقافته ، وعندها يكون الناظر في تفسيره دون الرجوع للنص الأصيل – في كثير من الأحيان – متفكراً بكلامه لا بكلام الله ،نازلاً على حكمه لا على حكم مولاه ،مع ضرورة الإشارة لاستحالة أن يتعلم كل البشر اللسان العربي إذ اختلاف الألسن من سنن الله في الكون وآياته : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ (الروم:٢٢) ، فإذا سلمنا أن الله يأمر كل البشر باعتناق الدين الإسلامي ،فهل يصح لقائل أن يقول : بأن هذا لا يكون إلا بتعلم اللسان العربي ،وكأنه يقول إذ ذاك : إن الله كلف البشر بما لا يطيقون ،وهذا ما لا يمكن القبول به .

معلوم أن الكثير من حقائق الدين لا يمكن أن يدركها العجم إذا قام بمطالعة النص القرآني المترجم حرفيا ،لكنه يشاطر السواد الأعظم من العرب في عدم الإدراك هذا ،غير أنه يمكن أن يدرك المعلوم من الدين بالضرورة ، كتحريم الخمر والزنا والربا والكذب والنفاق ووجوب الصلاة والصيام والزكاة والحج ، ومعرفة المحرمات من النساء ،وبعض المبادئ العامة في نظام المواريث وحقوق المرأة ،ومنهج التعامل مع الآخر ،وشيئا من الاعجاز العلمي والغيبي والاجتماعي وغيرها ، بحيث يتشكل لديه تصور عن الإسلام يزيده إيماناً بمنهجه ،ويحرك في نفسه جملة من التساؤلات فيتقصى إجاباتها ،ويحدد ما يحتاج للبحث في مقاصده ومراميه مما يشكل في جملته تعريفاً عاماً للدين الإسلامي يكون به قادراً على تبليغ دينه والدفاع عنه ،كغالب المثقفين العرب عند مطالعة النص القرآني .

فإن قال قائل : إن العلماء يكفون العجم مؤونة النظر في كلام الله ويفسرونه لهم

،وعندها لا يحتاجون للنظر فيه تحسباً من الخلاف أو الخطأ ، أقول : نعم لا يجب أن يغفل جهد العلماء في البيان والتوضيح لكن هذا لا يمنع من اطلاع العجم على النص الأصيل كحق العرب تماماً [1] ،وإلا فقد يصح لزاعم أن يقول :لا يجب على العجم ما يجب على العرب ،حتى من بعض ما يعد معلوماً من الدين بالضرورة ؛ لعدم بلوغهم الرسالة كاملة إذ لا يمكن للدعاة أن يصلوا كل فرد في محلته ،أو إنَّ خلقهم عجماً ضرب من الظلم ؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ونصل لسؤال مهم جدا ومؤثر في مسار بحثنا بشكل بائن ، وهو حول طبيعة النصوص التي كانت تنتقى لخطاب العجم ، فهل كانت مشحونة بالمجازات والاستعارات والمعاني الخبيئة التابعة ،أم مما يسهل ترجمته مما ليس فيه مجازات كثيرة ،ودلالته الأصيلة هي المرادة ولا تحتاج إلى عنت في إدراكها ؟ وللإجابة على هكذا سؤال نحتاج دراسة أكثر النصوص القرآنية التي تضمنتها الكتب النبوية للعجم حتى نتوصل لشيء بهذا الصدد ،وسأبدأ بنص كتابه صلى الله عليه وسلم لهرقل والذي مر بنا آنفا ، حيث اقتبس البسملة :» **بسم الله الرحمن الرحيم** « والآية الرابعة والستين من سورة آل عمران : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ وسأورد الخطابات الثلاثة الأخرى ؛ كي يتسنى معرفة ما تضمنته من نصوص قرآنية ،فقد أرسل صلى الله عليه وسلم للمقوقس :((**بسم الله الرحمن الرحيم** ، من محمد بن عبدالله إلى المقوقس عظيم القبط ، **سلام على من اتبع الهدى** ، أما بعد فإني أدعوك بداعية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم القبط ، يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن

(١) قلت سابقاً إن من حق العجم : النظر في كلام الله تعالى من غير تدخل مفسر أو تأويل عالم ، إذ سمعنا ونسمع كل يوم عن تفسيرات تذهب شططاً ، وتبتعد كثيرا عن مقاصد القرآن الكريم ،ونظرة تأمل في النص الأصيل قد تساعد المثقف الغربي على الحذر من مثل هذه التأويلات ،حاله حال المثقف العربي .

تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾))[1] .

ولكسرى :((**بسم الله الرحمن الرحيم** ، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، **سلام على من اتبع الهدى**، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛وأن محمداً عبده ورسوله ؛وأدعوك بدعاء الله؛ فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة ؛ **لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين** ،فأسلم تسلم ،فإن أبيت ؛فإن إثم المجوس عليك))[2] .

وللنجاشي :((**بسم الله الرحمن الرحيم** ، هذا كتاب محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبش **سلام على من اتبع الهدى** ، وآمن بالله ورسوله ،وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،**لم يتخذ صاحبة ولا ولداً** ،وأن محمداً عبده ورسوله ،أدعوك بدعاء الله ،فإني أنا رسول الله ،فأسلم تسلم ،﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

فإن أبيت فعليك إثم النصارى))[3] .

ونجد أن الرسائل جميعا لم تخل من الاقتباس من القرآن الكريم ، حيث اشتركت جميعها بالبسملة ولا خلاف في كونها آية من سورة النمل ، وكذلك اشترك خطاب

---

(١) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، محمد بن محمد بن سيد الناس (٢/ ٣٣١) .

(٢) تاريخ الأمم والملوك للطبري (٢/ ٣٠) .

(٣) المستدرك للحاكم ، كتاب الهجرة الأولى للحبشة (٢٨/١٠) ، كما أرسل له برسالة ثانية مع عمرو بن أمية الضمري ، وأشرنا لذلك سابقاً ،وهذا نصها : ((بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى النجاشي ملك الحبشة ،أما بعد، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم الطاهرة البتول، الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه من روحه، ونفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله تعالى قد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي، وقد بعثت إليكم ابن عمي جعفراً ومعه نفر من المسلمين ، والسلام على من اتبع الهدى)) وجدت نص الكتاب في كتاب (مكاتيب الرسول) للأحمدي الميانجي (١/ ٣٢) ولقد أورد صورة للكتاب الأصل وتحدث عن تفاصيل اكتشافها ، والعهدة عليه .

المقوقس والنجاشي مع خطاب هرقل بالآية الرابعة والستين من آل عمران ،ثم نجد أن قوله :سلام على من اتبع الهدى ،مقتبس من الآية السابعة والأربعين من سورة طه :» **والسلام على من اتبع الهدى** « ،وكذلك انفرد خطابه لكسرى بقوله :((لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين)) ، وهو مقتبس من الآية (٧٠) من سورة يس : ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ، كما انفرد خطاب النجاشي بقوله :((لم يتخذ صاحبة ولا ولدا)) وهو مقتبس من قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ (الجن:٣) . إذن هي خمسة نصوص محكمة[١] مقتبسة من القرآن الكريم ،دلالتها المقصودة هي الدلالة الأصلية ،يدركها كل من نظر فيها حتى رجل الشارع العادي ، فضلا عن المثقف ،ولا يُتوقع أن يلتبس شيء من معانيها على أحد من العقلاء ،وهي نصوص قابلة للترجمة بصورة حرفية لأي لسان ،ويقدر عليها كل أحد عالم بالعربية وذلك اللسان ،كقدرته على ترجمة سائر خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وما سيدركه القارئ باللغة الناقلة عين ما يدركه القارئ باللغة المنقولة ،على تفاوت بحسب ثقافة وتحصيل كل منهما ،مما ينبئ بأن النبي صلى الله ليه وسلم كان ينتقي من النصوص القرآنية ما يمكن ترجمته للألسن الأخرى بصورة واضحة يتأكد معها بلوغ الرسالة وجلاء المقصد وإقامة الحجة ،وكما أسلفت ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينوه في رسائله للنصوص القرآنية البتة ولعل في ذلك حكمة بالغة ؛فأولا : هو يخاطبهم بكلام الله تعالى ، ببركته وبلاغته وحكمته ،ويشير إلى جواز ترجمة النص القرآني بصورة حرفية ، وذلك بلسان الحال إن لم يكن بالمقال؛ مما يتيح للعجم النظر في كتاب الله تعالى في أقرب صورة للحقيقة ،وهذا من تمام الفقه، فما لا يدرك كله لا يترك جله ،ولئن كان تعلم العجم جميعاً للعربية أمراً مستحيلاً عادة ويعسر عليهم أن يقتربوا هم من لغة القرآن الكريم ،فإن الشرع الحنيف قائم على التيسير وتحقيق المصالح ،فشرع لنا أن نقرِّب القرآن الكريم منهم ،وليس ثمة مفاسد في هذا الأمر لا سيما عند الاتفاق على أن المُترجم ليس قرآنا ؛ذلك أن القرآن

(١) على المعنى الأصيل أي من القوة والفصاحة ،وكذلك المعنى الاصطلاحي الذي يقابل المتشابه ؛إذ القرآن الكريم آيات محكمات ومتشابهات.

الكريم هو اللفظ والمعنى معا ،فلئن تعذر إدراك اللفظ فلا أقل من إدراك المعنى كما هو من عند الله تعالى من غير تصرف مفسر وتبيين مؤول ،إذ الترجمة الحرفية غير ممكنة بصورة مطابقة تماماً فلكل لغة خصوصياتها وفقهها وقواعدها ، ولا بد من تصرف من المترجم ،لذا فإننا عندما نترجم النص مباشرة فإننا نكتفي بتصرف واحد ،أما إذا قمنا بترجمة التفسير الذي لن يخلو من تصرف فإننا نتصرف في التصرف ، وبذا نضاعف الشقة بين العجم وبين النص الأصيل لكتاب الله تعالى ،وكما أن السواد الأكبر من العرب لا يدرك الإعجاز البياني والبلاغي في كتاب الله تعالى حتى غدا أمر البحث فيها داخلاً في دائرة الفرض الكفائي ،فأظن أن عدم تكليف العجم بهذه المباحث من باب أولى ،كما أن في أنواع الإعجاز الأخرى في كتاب الله تعالى مما يمكن أن يدركه العجم كالإعجاز العلمي والغيبي والاجتماعي والاقتصادي والتشريعي ما يكفي ليكون سبباً في الإيمان والتصديق والثبات ، بل الدعوة إلى الإسلام .

إن مما يمكن أن نفهمه أيضاً من الاقتباس النبوي هو : ضرورة أن نحدث حالة من الربط للعجم بكتاب الله تعالى مباشرة تجعل شأن التعرف على الإسلام أكثر دقة وسهولة من خلال تيسير عملية تواصلهم مع مصادر الإسلام الأصيلة[1] من غير واسطة فكر أو مذهب أو اتجاه ؛إذ الكثير من حقائق الإسلام وشرائعه ومبادئه وآدابه مبثوثة في القرآن الكريم وهي مما يمكن إدراكه بلا جهد كبير أو عنت ،ولو أراد الله عز وجل أن يحرم هذه الصورة من الترجمة لكان ذلك بنص صريح في القرآن الكريم أو على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ؛لذا فإنه لا يحق لأحد من البشر أن يعطي نفسه حق الوصاية على القرآن الكريم فيشرع حرمان العجم من التواصل مع كتاب الله تعالى بحجة الخوف عليه من التحريف والتبديل مع تطاول الزمان لأن الله تكفل بحفظه ،والمتخوف متشكك بقدرة الله تعالى على ذلك الحفظ .

كما أننا من خلال هذا الاقتباس النبوي يمكن أن نفهم ونعلل رأي الحنفية في مسألة

(١) وأقصد القرآن الكريم والسنة والشريفة .

جواز الصلاة بالمترجم من القرآن الكريم للعاجز عن العربية وغير المستطيع لها[1] ،كما أن هذا الانتقاء والاقتباس من القرآن الكريم يحرك همم العلماء للنظر في كتاب الله تعالى وحصر ما يمكن أن يترجم منه بصورة حرفية ،وغالبه كذلك ؛ إذ المحكمات هنَّ أم الكتاب ، وفيه أخر متشابهات ، وهي الأقل ؛لنيسَّر على العجم هذا التواصل مع ما يمكن أن يشكل بمجموعه جوهر الإسلام وأبرز حقائقه مما يلزمهم في معايشهم بل وفي صلاتهم .

من كل ما سبق يمكنني أن أقول إنه يمكن تقسيم القرآن الكريم إلى قسمين من حيث إمكان الترجمة :

الأول : الممكن ،وهو غالب المحكم الذي يقصد به الدلالة الأصيلة الظاهرة ، وتكون فيه المجازات والاستعارات أقل من سواها ، ولئن وردت فتكون مما درج ما يشبهه في الألسن الأخرى ، ويمكن ترجمته كقوله تعالى : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ (يوسف:٨٢) ،أو قوله تعالى : ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ (مريم:١٢) ، فليس سؤال الحجارة والدواب على الحقيقة ولا الأخذ بمعنى الرفع والحمل .

الثاني : الممتنع : وهو الذي يقصد به الدلالة التابعة لكثرة المجازات والاستعارات التي فيها ، لصعوبة مأخذها وتركيبها ،وعدم ورودها إلا في لسان العرب ،كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ (الرعد:٣١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ (التوبة:٦١) ، أو قوله تعالى : ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (لقمان:١٦) .

---

(١) المبسوط للسرخسي كتاب الصلاة ، باب افتتاح الصلاة (١/٩٧) العناية شرح الهداية ، محمد بن محمد البابرتي (١/ ٤٦٤) ، حاشية رد المختار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار ، ابن عابدين (١/٤٤٣) ، وغيرها الكثير من المراجع المعتبرة في المذهب .

ويبقى سؤال مهم وهو : في أي القسمين يندرج القصص القرآني ؟ وهو الذي يشكل المساحة الأعرض في كتاب الله تعالى ، وما حجم الإشكالات الدلالية والأسلوبية في ترجمته ؟ وهذا ما سأتركه للمطلب الثاني .

المطلب الثاني : دراسة محاورة جعفر للنجاشي رضي الله عنهما ، تطبيق وتحليل ونتائج

مما ثبت تاريخيا : أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه بالهجرة للحبشة : ((لو خرجتم إلى الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ؛ حتى يجعل الله لكم فرجا))[1]،وقصة الحوار الذي دار بين جعفر رضي الله عنه والنجاشي مشهورة في كتب الحديث والسير والتاريخ ، غير أن اللغة التي دار بها الحوار بينهما مما لم أجد له تحقيقاً شافياً في المصادر التاريخية ،وهل كانت الحبشة تعرف اللغة العربية كما يصرح بذلك عدد من الباحثين وعلى رأسهم أستاذنا الكريم العلامة الأستاذ الدكتور فخر الدين قباوة[2] حفظه الله ، إذ يؤكد أن الحبشية لهجة من اللهجات العربية ، وسمعت رأيه وشيئاً من أدلته من شفتيه مباشرة ، إذ انتقل مؤخرا من حلب إلى إسطنبول ،وحين دققت في البداية والنهاية لابن كثير وجدت نصاً مهماً جداً حيث يقول في وصف جعفر بن أبي طالب فيمن هاجروا معه : (وهو المقدم عليهم والمترجم عنهم عند النجاشي وغيره، كما سنورده مبسوطا)[3] ،ونقل ابن كثير عند البسط في القصة كما وعد :(عن ابن إسحاق :حدثني يزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير، قال :إنما كان يكلم النجاشي عثمان بن عفان رضي الله عنه ،والمشهور أن جعفراً هو

---

(١) المسند ، أحمد بن حنبل (٤ / ٢٥٩)، السيرة النبوية لابن اسحاق ص ٧٤ .

(٢) علامة النحو واللغويات ولد ١٩٣٣م في حلب ، وله العشرات من المؤلفات في النحو والتفسير ، حقق العديد من الكتب المهمة ،وأثبت رأيه في عدد من كتبه ، منها : إحياء البحث العلمي الإسلامي ، ونشوء اللغات وتطورها نموذجاً ،لم أطلع على الكتاب لكنه حدثني عنه حفظه الله تعالى .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٣ / ٨٥) .

المترجم رضي الله عنهم.)[1]،ووجدت في تفسير الدر المنثور عبارة للسيوطي وهو يسرد قصة النجاشي مع جعفر وكيف كان يستشير قومه في الأحداث :(فجمع النجاشي قسيسيه ورهبانه وتراجمته)[2]،ومما يستأنس به : أن المصادر تؤكد أن معنى كلمة النجاشي في اللغة العربية : العطية ، كما ذكر ذلك النووي في شرح مسلم :(اسم النجاشي أصحمة ،قال ابن قتيبة وغيره : ومعناه بالعربية : عطية)[3] ، ومن الطبيعي أن يُسمى الملك لأي بلد باسم مشتق من لغتها التي يتكلمون بها ،ولعل هذا من بدهيات الولاء والانتماء لبلده ولغته[4] ،ومما يقوي لديَّ : أن الحبشة لا تعرف العربية وإن كانت لغتهم سامية[5] مثلها ما ورد عن محاورة أبرهة الأشرم الحبشي مع عبد المطلب سيد قريش حين أراد هدم الكعبة ، إذ كان بينهما ترجمان :(... فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلس عبد المطلب معه عليه إلى جانبه ، ثم قال لترجمانه: قل له : حاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان فقال :حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٩٧)، ولا شك أن عبارة (والمشهور أن جعفراً هو المترجم) من ابن اسحاق ، وهو أول من كتب في السيرة النبوية وأرخ لها عبارة مهمة جدا ينبغي أن يتوقف عندها كثيراً لا سيما قرب عهده وصلته بكبار التابعين ، حيث ولد عام ٨٥ هـ وتوفي عام ١٥١هـ في المدينة المنورة ونشا فيها .

(٢) الدر المنثور للسيوطي (٣/ ٦١٩) ، ونقل الألوسي نفس الرواية في روح المعاني (٣/ ٧٨) ، ورواية السيوطي من طريق عبد بن حميد ،قال عنه الذهبي : الإمام الحافظ، الحجة الجوال ، سير أعلام النبلاء (٢٣/ ٢٢٧) ، ونقل عبد بن حميد الرواية بسنده في كتابه التفسير عند الآية٦٧ من آل عمران ص(٣٢)، ونقل الحافظ بن حجر رواية ابن حميد في العجاب مختصرة وقال : هي مشهورة وطرقها متعددة (٢/ ٦٩٠) .

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي (٣/ ٣٧٠) ، وقال صاحب اللسان : والنجاشي كلمة للحبش تسمى بها ملوكها (٦/ ٣٥١).

(٤) اسم اللغة الحبشية القديمة الجعزية ، وتطورت في القرن الثالث عشر وصار يطلق عليها الأمهرية ولا تزال لغة القوم حتى هذا العصر الحديث (بحث للثيودور نولدكه بعنوان الأدب الحبشي ، ملحق في كتاب الحضارات السامية القديمة لموسكاتي ص ٣٨٧ والمترجم هو من ألحق هذا البحث) ومثل ذلك: كلمة كسرى الفارسية وتعني الملك ،وقيصر في الرومية قريب من ذلك ولا تزال هذه الكلمة تستخدم في الانجليزية والألمانية وغيرها من اللغات الأوروبية ، وعند العرب يعبرون بالملك أو الرئيس أو الأمير وكلها عربية .

(٥) وهذا المشتهر أنها سامية غير أني وجدت بحثا للمستشرق الألماني ثيودور نولدكة يؤكد أن أصولها حامية ،ومما يؤكد قوله أن إفريقيا ليست من المناطق التي سكنها الساميون عبر التاريخ ،بل محل إقامة الحاميين ،والتفصيل سيأتي لاحقا .

أصابها لي ..)[1] ،ومعلوم : أن أبرهة هو قائد جيش النجاشي صاحب الحبشة ،وعليه فاللغة الدارجة في الحبشة بعيدة عن العربية وما صلتها بها إلا كصلة أي لغة بأخرى. ولعل قائلا يقول : إنها لغة سامية كالعربية والشبه بينهما كبير : لا سيما في ذلك الوقت الذي لم تكن فيه الفجوة كبيرة جدا بين اللغات ، خصوصا ذات الأصل الواحد . أقول والكنعانية والآرامية والعبرية لغات سامية كذلك ؛فهل يمكن للعربي – مثلا – أن يفهم العبرية ،أو العكس ،ولا أقصد في عصرنا هذا ، بل في ذات عصر النبي صلى الله عليه وسلم ؟ ولعلّي أجبت عن هذا السؤال سابقاً عند ذكري لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد أن يتعلم العبرية لأنه لا يأمن اليهود الناطقين بالعربية على ترجمة كتبه لهم أو كتبهم إليه ،ولعل ما عزز عند النبي صلى الله عليه وسلم عدم الثقة بهم هو كذبهم في الترجمة عن التوراة حين سألهم :((ما تجدون في التوراة في شأن الرجم))[2] ،حتى فضحهم عبد الله بن سلام رضي الله عنه كما نقل ابن بطال في شرحه على البخاري :(أن ابن سلام ترجم عن التوراة آية الرجم للنبي صلى الله عليه وسلم حين أخفاها اليهود في حادثة رجل منهم وامرأة قد زنيا)[3] ،هذه الحاجة للترجمة بالرغم من احتكاك اليهود المباشر بالعرب لسنوات طويلة إلا أن العبرية حافظت على ذاتيتها كلغة مستقلة بحروفها ومخارجها وقواعدها وتراكيبها بحيث لا يمكن إدراكها إلا بعد تعلم وممارسة ودربة ،فكيف بالحبشية (الجعزية) وهي الأبعد جغرافيا ،كما أن الحبشة كانت في ذلك الوقت قوة ضاربة ، وحضارة معتبرة ، ودولة مهابة ،على عكس حال العرب تماماً ، وما سمعنا قط بأن القوي هو من يلجأ لتعلم لغة الضعيف[4] ،ولئن

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري (١/ ٤٤١) ، والبداية والنهاية لابن كثير (٢/ ٢١٤) ، والسيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٦٨) ، وممن يرون أن الحبشة عجم عائشة بنت الشاطئ في كتابها مع المصطفى ص ١٠٩ ، والدكتور راغب السرجاني في موقعه الإلكتروني قصة الإسلام

(٢) صحيح البخاري كتاب بدء الوحي (٤/ ٢٥١) .

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال ، كتاب الرجم (٨/ ٤٥٦) بتصرف يسير ، مع الإشارة إلى كون اليهود الذين سكنوا المدينة المنورة من العرب والمرسلات التي كانت تحتاج الترجمان مع الذين في الخارج كيهود خيبر .

(٤) بل لقد درجت العادة أن القوي يتحدث بلغته حيثما حل وسافر ، وإن كان يعرف لغة القوم الذين نزل فيهم ضيفا .

اشتركت الحبشية مع العربية بعدد من الألفاظ فإن العبرية والفارسية كذلك ،ومما قرأت للأستاذ الكبير محمد الغزالي في بحث له عن الترجمة التفسيرية للشيخ أشرف علي التهانوي وقيمتها العلمية قال ما نصه : ومن الأسباب التي حثت العلماء الهنديين على ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الأردية : أن أكثر من خمسين في المائة من كلمات القرآن الكريم تستعمل باللغة الأردية . ا هـ[1] ، ولقد سمعت من بعض أساتذة الأدب التركي أن ثلاثين بالمائة من اللغة التركية مأخوذ من العربية ،وهذا ما ألمسه فعلا لكوني أعيش منذ سنة في اسطنبول التركية ،ولن تجد لغة صافية من تداخل سواها بها ،غير أنها تبقى لغة برأسها .

وعند رجوعي لأساتذة اللغويات من المستشرقين كالأستاذ سبتينو موسكاتي[2] في كتابه المهم جدا (الحضارات السامية القديمة) ،وجدته يؤكد أن هناك نوعاً من الصلة بين اللغات ذات الأصل السامي ، كطبيعة الجذور والاشتقاق ونظام الحركات ، لكنها تبقى لغات منفصلة عن بعضها ،ويقسمها إلى خمس لغات تصلح أساسا لتقسيم الشعوب الناطقة بها ،وهذا نص عبارته :(ويمكن تقسيم هذه اللغات إلى مجموعات رئيسية تصلح أساسا لتقسيم الشعوب التي كانت تتحدث بها)[3] ،ثم ذكر هذه الأقسام فكانت :الأكديين (البابليين والأشوريين) في العراق ،والكنعانية في فلسطين وأجزاء من سوريا والعبرية تنتمي لهذه المجموعة ،والآرامية في سوريا ،والعربية في شبه الجزيرة حتى اليمن ،والخامسة هي الأثيوبية في الحبشة ،وسأقتبس منه حديثه المتعلق بالأثيوبية ،فيقول : (والمجموعة الخامسة والاخيرة هي الأثيوبية التي كان يتكلم بها المستوطنون الساميون في الحبشة وكانت الحبشية لغة واحدة في العصور القديمة ،ولكن في العصور الوسطى – فقط صارت – مجموعة ، وذلك بانقسامها إلى

---

(١) من أوراق الندوة الدولية التي عقدت في جامعة آل البيت / الأردن يوم ١٨ أيار ١٩٩٨م بعنوان ترجمات القرآن الكريم إلى لغات الشعوب والجماعات الإسلامية حيث تقدم الأستاذ الكبير محمد الغزالي بورقة بعنوان الترجمة التفسيرية للشيخ أشرف علي التهانوي وقيمتها العلمية في فهم رسالة الإسلام .

(٢) عالم إيطالي في اللغويات والآثار ،أصبح أستاذا لفقه اللغات السامية في جامعة روما عام ١٩٥٤م ، وأسس معهد دراسات الشرق الأدنى .

(٣) الحضارات السامية القديمة سبتينو موسكاتي ص ٥٠

لهجات يتميز بعضها عن بعض تميزاً واضحا)[1] ،ونلاحظ كيف فرق بين اللهجة واللغة ؛فجعل ما استمد من الأثيوبية لهجات أما ما انقسمت له السامية لغات ،وهذا أمر منطقي وهي دورة حياة اللغات الإنسانية ،فأصلها جميعا واحد ثم نشأت اللهجات من رحمها حتى تطورت إلى لغات .

وفي مقال لثيودور نولدكه[2] بعنوان (الأدب الحبشي)[3] يؤكد بما لا يدع مجالا للشك حقيقة كون اللغة الحبشية لغة بذاتها ، وأن اسمها القديم هو اللغة (الجعزية) وأن أصلها يعود للغات الحامية ، كالسكان الأصليين لغالب إفريقيا ، غير أنها تأثرت باللغات السامية وتحديدا العربية بسبب هجرة العرب لتلك البلاد ، لكنها بقيت لغة برأسها ،ويدلل على ذلك بالترجمات التي عُثر عليها للكتاب المقدس باللغة الجعزية الحبشية المنقولة عن اليونانية القديمة ،ويتحدث بتفصيل عن مراحل عملية الترجمة ويصف الترجمات وكيف أنها تعرضت للتحريف والنقص ،وخلت من بعض الأسفار ،كما أنها استغرقت زمنا طويلا امتد من القرن الخامس وحتى القرن الثامن الميلاديين حتى استكملت ،ولا شك كانت هجرة الصحابة رضي الله عنهم في الربع الأول من القرن السابع الميلادي ،أي في تلك الحقبة التي كانت فيها اللغة السائدة هي الجعزية .

ولقد أقامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالتعاون مع المعهد الثقافي الإفريقي بدكار مؤتمراً بعنوان : (العربية في اللغات الإفريقية) في ٨ رجب ١٤٠٤ هـ / ٩ نيسان ١٩٨٤ م ، حيث قُدمت أوراق من عدد كبير من الأساتذة والباحثين الذين اتفقت كلمتهم على التباين بين العربية وسائر اللغات الإفريقية ومن أهم الأبحاث التي قدمت : ورقة بعنوان : (البحث في العلاقات بين اللغة العربية واللغات الإفريقية، واقعه

---

(١) المرجع السابق ص ٥٠ .

(٢) ثيودور نولدكه (١٨٣٦ – ١٩٣٠) كبير المستشرقين الألمان ،أتقن العربية والعبرية والسريانية ،حصل على الدكتوراه (١٨٥٦م) في سن العشرين عن تاريخ القرآن الكريم ،عين مدرساً للتاريخ الإسلامي في جامعة غوتنغن (١٨٦١م).وأستاذ التوراة واللغات السامية في كييل (١٨٦٤م).

(٣) نشر هذا المقال عام ١٩٢٥م في كتاب الآداب الشرقية في برلين ص (١٣٤–١٤٠) وألحقه المترجم في آخر كتاب موسكاتي .

وآفاقه) للدكتور أحمد العايد[١] حيث يؤكد – كغيره من المؤتمرين – أن العربية دخلت مع الإسلام لإفريقيا وليس قبله ، فيقول : (نلاحظ أن اللغة العربية دخلت القارة الإفريقية شمال الصحراء وجنوبها مع الإسلام ، فأصبح المسلمون يستخدمونها في قراءة القرآن وأداء والواجبات الدينية) وينقل في ورقته كلاماً عن الدكتور محيي الدين صابر[٢] الذي افتتح مؤتمراً في الخرطوم بعنوان : (ندوة العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الإفريقية) والذي عقد في فبراير شباط ١٩٨١م حيث تحدث عن تاريخ العلاقة بين اللغة العربية واللغات الإفريقية وبين أنها بدأت مع الإسلام[٣] .

وبعد حشد هذه الأدلة على عجمة الحبشة وأن لغتهم بعيدة جدا عن العربية يتبين لنا أنه كان لابد من ترجمة النص القرآني الذي تلي للنجاشي وقساوسته كسائر الكلام الآخر بصرف النظر أكان المحاور جعفرا أم عثمان[٤] ،وإن كان الناطق الرسمي والمترجم هو جعفر لمعرفته باللسان الحبشي ،فضلا عن وجود مترجمين في بلاط النجاشي من بطانته للتوثيق والتحقق من دقة الترجمة .

المشهور أن جعفراً رضي الله عنه تلا صدراً من سورة مريم ، وأن الذي أوقفه عن التلاوة شدة نحيب النجاشي وقساوسته[٥] ،ولم يرد أثر صحيح يعتمد عليه يحدد الآيات التي تلاها ،غير أن المتتبع للروايات يلاحظ أنه توقف قبل الوصول للحديث عن عيسى عليه السلام بدليل أن عمرو بن العاص قال بعد هذه الجلسة مع النجاشي وقد خرج خائب الفأل :(والله لآتينه غدا بقول أبتر به خضراءهم) ،فلما كان الغد جاء فقال : (أيها الملك، إنهم يخالفونك في عيسى بن مريم ، ويزعمون أنه عبد ،فسلهم عن ذلك) ،ومما يدل على أنه تلا بعضا من قصة مريم في السورة : أنها هي الحدث الأبرز

---

(١) أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس ، وهو خبير المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وقتئذ .

(٢) المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ذلك الوقت .

(٣) العربية في اللغات الإفريقية ، وهو كتاب يجمع الأوراق التي قدمت في المؤتمر ص ١٢٢ .

(٤) ويظهر من خلال الجمع بين الروايات أنه كان بينهما شيء من التشاور للرد على أسئلة النجاشي .

(٥) المسند لأحمد بن حنبل (١/ ٢٠١) .

الذي يحرك الأشجان ويهز القلب ومظنة بكاء التالي والسامع ،لاسيما أنهم نصارى ويعظمون مريم غاية التعظيم، ولا يوجد ما يمنع من كونه تلا باقي القصة عند سؤال النجاشي عن قولهم في عيسى عليه السلام وإن نقل الزمخشري أنه تلا كامل القصة في أول مرة حتى قوله تعالى : « ذلك عيسى ابن مريم «(٣٤)،ووافقه النسفي في ذلك[١]،غاية ما في الأمر أنها آيات قصصية تماماً ،ومقاطعها قصار ، وتصف أحداثا ليست غريبة على القوم ،ولحكمة بالغة كان توفيق الله تعالى لجعفر في اختيار هذه الآيات ،وربما –لذات الحكمة– كانت هذه الآيات أول ما نزل من القرآن الكريم بشأن عيسى وأمه عليهما السلام ، إذن ، هي عوامل متعددة تجعل الترجمة أسهل ؛فهي قصة كثير من أحداثها معلوم مسبقاً لدى المستهدفين ،ومقاطعها قصيرة ؛ مما يسهل شأن الترجمة ،أيضاً هي قصة واقعية لشخوص معروفة ، وأحداثها أقرب ما تكون للجانب الاجتماعي فليست اقتصادية ولا سياسية ، وليست حججاً منطقية أو منظومة أخلاقية ؛ مما جعلها تخلو من المصطلحات الخاصة بثقافة أو عصر ،كما خلت من المجازات والاستعارات التي قد تتعلق بلغة دون سواها ،فالمعاني الأصيلة الظاهرة هي المقصودة ،كل هذه الظروف مجتمعة جعلت الترجمة سهلة ودقيقة ومؤدية لدرجة أن النجاشي تعايش مع الآيات أكثر من بعض الصحابة ،بل ولعله أدرك منها ما لم يدركه سواه من العرب ،لأنها تصف أحداثا اجتماعية إنسانية ، ولا تنطوي على معان ثانوية تابعة لا يمكن أن تدرك إلا من خلال إدراك بلاغة اللغة وبيانها ،وإلا لكان عسيراً أن يخشع ويبكي هو وقساوسته ،فضلاً عن إسلامه بسبب تأثره بما سمع من كلام الله تعالى مباشرة دون تصرف مفسر أو تبيين مؤول ،ولئن كان الإعجاز البياني هو أهم جوانب العظمة القرآنية فليس معنى هذا أنه الوحيد بدليل أن القرآن فعل فعله العجيب في النجاشي العجمي كالذي فعله بعمر بن الخطاب حين تلا سورة الحديد[٢]

---

(١) الكشاف للزمخشري (٦٦٩/١) ، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي (٣٠٣/١) ، مع ملاحظة أن الزمخشري ذكر الرواية بصيغة التمريض : يُحكى .

(٢) مسند البزار (٤٠٣/١) ،أسد الغابة لابن الأثير (٣١٦/٢) ، عيون الأثر لابن سيد الناس (١٦٠/١) .

ولعل مرجع هذا الأمر لذلك التقسيم الذي حدثنا عنه الشاطبي وعلاقته بفعل الترجمة حيث يقول عن النوع الأول من دلالة الكلام الأصيلة :(فالجهة الأولى هي التي يشترك فيها جميع الألسنة وإليها تنتهي مقاصد المتكلمين ولا تختص بأمة دون أخرى فإنه إذا حصل في الوجود فعل لزيد مثلا كالقيام ثم أراد كل صاحب لسان الإخبار عن زيد بالقيام تأتى له ما أراد من غير كلفة ،ومن هذه الجهة يمكن في لسان العرب الإخبار عن أقوال الأولين ممن ليسوا من أهل اللغة العربية ، وحكاية كلامهم ويتأتى في لسان العجم حكاية أقوال العرب والإخبار عنها وهذا لا إشكال فيه)[1]،وعند إمعان النظر في القصتين في صدر السورة نجد أنها تدخل في هذا النوع من الكلام من حيث أنه يقصد منه دلالته الأصيلة ،وما يدركه العربي من بحر عظمة الآيات عين ما يدركه العجمي منها حال ترجمتها له ،وإن لم يدرك العجمي أسرار التركيب والتقديم والتأخير والحذف والذكر والفصل والوصل وفنون البديع، والفروق البلاغية بين مساق القصة في سورة مريم عنه في سورة آل عمران ،فهو وغالب العرب في الأمر شرك ، ومقدار ما يتحصل لهم من فهم يكفي ليحقق لهم شيئا من الهداية والصلاح .

إن ما يذكر من إشكالات دلالية وأسلوبية محتملة عند ترجمة الكثير من النصوص القرآنية وغالب القصص القرآني بصورة خاصة يمكن أن يذكر كذلك ما يشبهه من إشكالات حال تفسير ذات النص ؛لأن المفسر لا يملك الثروة اللغوية القرآنية والقدرة التركيبية فيه لينثر آياته دون أن ينقص بعض مقاصدها ويغفل شيئا من مضامينها ويعجز عن إدراك الكثير من أسرارها ،لكن أحدا لا يتحدث عن إشكالات من هذا النوع في التفسير وكذلك ينبغي أن يكون مع الترجمة – فكما ليس نثر القرآن قرآنا فليست الترجمة كذلك – ولئن كان فليس على النحو الذي ذهب بعلمائنا لتحريم الترجمة الحرفية ،العظمة الحقيقية ليست في اللغة العربية وأنَّ لغة أخرى لا تبلغ مبلغها ،بل العظمة في القدرة الإلهية على تطويع اللغة وإعمال كامل طاقتها ،لقد تنزل القرآن الكريم باللغة العربية، فكان رفعةً لقدرها، وتعظيماً لشأنها، فليست اللغة في نفسها مُعجزةً،

(١) الموافقات للشاطبي (٣٥٨/١) .

وليس لها عظمة ذاتية تتفوق بها على غيرها من اللغات[1] ،وإنما بلغت الذي بلغت يوم شرَّفها الله تعالى فاختارها وعاءً لكلامه الكريم، ولم تكن اللغةُ التي ينطق بها العرب لِتسعَ القرآن الكريم لو ظلت بحدود خصائصها وطبيعتها قبل تَنَزُّله ؛لأن لغة العرب على قدر إمكاناتهم، أما القرآنُ العظيم فصورةٌ لعظمة الله تعالى، ومن صفاته المُعظمةِ الأزليةِ، فيوم تنزل القرآن أضاف للغة العربية عظمةً انعكاساً لعظمته الذاتية، ولو قدَّر الله أنْ ينزل القرآن بلغة أُخرى لانتقلت العظمة للغة النازل بها، وانسحب بساط العظمة من تحت العربية، وعليه فاللغة هي التي شَرُفَتْ بالقرآن، وارتفع قدرها، وهو الذي أعطاها خصائص إضافيةً لم تكن تملكها، فمثلاً كانت العربية إما شعراً أو نثراً، وعلى هذين النوعين اقتصر كلام أبلغ البلغاء، فنزل القرآن على صورة جديدة، لم يكن العرب الأقحاح يعرفونها بل وخارج محيط إدراك اللغةِ نفسِها، فلم تكن لتَستَوعِبَها ،كما أن القرآن أضاف مبتكراتٍ في التركيب، ودلالة الألفاظ، فأخرج اللغة عن حدود قدرتها الطبيعية حتى صارت لغة الكتاب المعجز .

إنَّ العصا التي كانت في يد موسى عليه السلام كسائر الخشب، ليس لها خصائص تميزها، سوى أنها للاتكاء والهشِّ، حتى كانت تجليات أقدار الله التي جعلتها حيةً تسعى، فصارت معجزة الكليم عليه السلام ،كذلك العربية في أصلها لغة من اللغات المحكية، لا تتفوق على غيرها إلا ربما بقدر ،لكنه يقيناً لا يبلغ بها حدَّ استيعاب كلام الله تعالى، حتى نزل القرآن فمنحها العظمةَ والإعجاز بحدود صلتها به فقط ، أما عند عزلها عن كلام الله تعالى ترجع لغة من اللغات، كما أنَّ أنبياء الله تعالى بغير الوحي والاصطفاء بشر من البشر، وإلا فلو قلنا إنَّ اللغة العربية لها خصائص ذاتية عظيمة، وهي التي كانت السبب في اختيار الله لها لتكون وعاءً لكتابه، وبغير هذه الخصائص لا تظهر معجزة القرآن، إذاً فإننا نُفقد القرآن قيمته الإعجازية، وعندها يكون الفضل للغة

(١) ولئن كانت العرب تفخر بمعلقاتها وميراثها الأدبي فإن لغيرهم ما يفخرون به فالسومريون يعتزون بملحمة جلجامش لشين نيقي واليونان يقدسون الإلياذة والأوديسة لهوميروس والرومان يحتفون بالإنياذة لفيرجيل وعند الهنود المهابهراتا ،والشاهنامة أعرق الملاحم عند الفرس ، وكل حزب بما لديهم فرحون .

على القرآن وللعصا على موسى وليس العكس .

إن الحديث عن إشكالات بنيوية وأسلوبية في الترجمة هو قدر مشترك بين كل اللغات، ولن تخلو ترجمة – بصرف النظر عن اللغة الناقلة والمنقولة – من هذه الإشكالات لأن لكل لغة أصولها وضوابطها ،لكنها لا تخرج النصوص عن حقائقها ومقاصدها وليس شرطاً أن يكون فيها إشكالات دلالية ،ولهذا ترجمت الكثير من الأعمال الأدبية اليونانية والهندية والصينية والغربية ،فضلاً عن العلوم الإنسانية والتجريبية التي تدرس في جامعاتنا ،ولا شك تظهر هذه الإشكالية أي – البنيوية والأسلوبية – في أجلى صورها في ترجمة النص القرآني المقدس ، لكننا لا ينبغي أن نجعل من هذه الإشكاليات حائلا بين العجم وبين كتاب الله تعالى ،إذ ليست الإشكالية الحقيقية في عدم قدرة اللغات الأخرى على استيعاب كلام الله تعالى ؛ لأن الله قادر أن ينزل كتابه بأي من اللغات الأخرى وسيكون له ذات الإعجاز البياني والبلاغي ،بل الإشكالية في عدم قدرة البشر على التعبير عن كلام الله بلغة أخرى وهو كعجزهم عن التعبير عن القرآن الكريم باللغة العربية تماماً ،وعليه فإن الحديث عن إشكالات بنيوية وأسلوبية في ترجمة القرآن هو حديث عن قدرة البشر في مقابلة قدرة الله تعالى ،وإذن فللنفس أن تذهب كل مذهب ،وما يمكن أن يعدد من ترجمات وبأي لغة للقرآن الكريم وما فيها من إشكالات بنيوية وأسلوبية أكثر من أن تحصر ؛إذ النقص ملازم للترجمة ،وما فضل القرآن عليها إلا كفضل الله على البشر ،وما الأمر إلا كإحياء النمرود وإماتته إذا ما قيس بقدرة الله على الإماتة والإحياء .

إن مما ينبغي التنبه له : أن نقل القرآن الكريم إلى اللغات الغربية يختلف بقدر ما عن نقله إلى اللغات الإسلامية التي نشأت وتطورت في محيط إسلامي وبيئة تلتزم ثقافة القرآن وهديه ؛ لأن اللغات الأوروبية تأثرت بالثقافة المسيحية واليهودية ، فضلا عن التأثر بالموروث الإغريقي واليوناني القديم ، وهذا ما يجعل مهمة المترجم أصعب إذ التصورات مختلفة ، والأصول متباينة والمسلمات متقابلة ، إن لم تتناقض في بعضٍ منها ،وأكثر ما تظهر هذه الإشكالية في المصطلحات ذات المفاهيم الخاصة المتصلة

بخلفياتها الفكرية والدينية ،وليس كذلك حال الترجمة للتركية والفارسية والأردية والكردية والبربرية والكثير من اللغات الإفريقية ذات الثقافة الإسلامية التي أثرت بالذوق والعقلية وطريقة التفكير والمصطلحات التي يتداولها القوم ، غير أني أعتقد أن الإشكال في الحالين لا يخرج عن كونه أسلوبياً أكثر من كونه دلالياً يحيل مسألة الترجمة الحرفية برمتها .

إنه لو كان للإشكالات الأسلوبية والبنيوية أي تأثير سلبي وخطير على دلالات النصوص ومضامينها إذن سيكون من الظلم للعجم : أن لا يَخصَّهم الله بكتاب بلغتهم لأن الرسالة ستصلهم مشوَّهة وفيها دَخَلٌ كثير ،لكن هذا أمر مستبعد ولذات السبب لم يحذر النبي من الترجمة الحرفية للآيات التي أرسل بها للعجم ،كما أن خطاب العجم على أساس فوقية اللغة العربية على لغتهم سيصنع حاجزاً بينهم وبين الدعوة والدين، إذ الإنسان مجبول على الحمية للغته وبلده ، حتى المسلمين من العجم كالأتراك والهنود وسواهم[1] ينبغي أن نبين لهم أن فوقية القرآن ليست لكونه عربيا ، إنما لأنه كلام الله تعالى ،ولو أنه كان بالفارسية أو الصينية أو غيرها فسيكون متفوقا كذلك .

مما لا يخفى : أنَّ لِبِنْية الكلمة في القرآن وأسلوب التعبير وموسيقى المفردات والتراكيب أثراً في الدلالات والإيحاءات والصور المتخيلة ،وهذا من صور الإعجاز التي أشار إليها علماؤنا ،لكنه تابع ولا يقصد لذاته ،وعدم إدراكه لا يغير شيئاً من المقاصد الأساسية والأصيلة للنص

يقول سيد قطب رحمه الله في هذا المقام : (وإني لأنظر مثلا في القرآن .... أعلى قمة في التعبير الأدبي في اللغة العربية بغض النظر عن القداسة الدينية – حين تنقل بعض آياته الفنية إلى لغة أخرى ، وحين تتخلف عن الترجمة صوره وظلاله وإيقاعه ... إنه يفقد جماله الفني وإن بقيت قيمته المعنوية)[2].

---

(١) أقصد عامتهم إذ الأمر معروف لدى المتخصصين والعلماء ، وحاجة عامة العرب لا تقل في هذا الأمر .

(٢) النقد الأدبي أصوله ومناهجه ، سيد قطب ، ص ٥٢ .

لذلك فإن النتيجة التي أصل إليها من هذا البحث هو وجوب الترجمة الحرفية للقرآن الكريم ما استطاعت الأمة الإسلامية إلى ذلك سبيلا[1]، لأن الدعوة إلى الله تعالى واجبة ولن يتم هذا الواجب على التحقيق والكمال إلا بتبليغهم كلام الله تعالى دون تصرف أو تأويل ،وأحسن ما يتم به هذا هو الترجمة الحرفية للقرآن الكريم وفق عدد من الضوابط :

أولاً : أن يشرف على المشروع هيئات علمية معتبرة تضم لفيفاً من العلماء الكبار العالمين بفقه اللغات من العرب والعجم ،فضلا عن كونهم من المشتغلين بتفسير القرآن الكريم وعلومه ،بحيث تخصص لكل لغة مستهدفة لجنة موسعة تقوم بالمشروع .

ثانياً : أن تحدد النصوص القابلة للترجمة بحسب التقسيم المذكور سابقاً ،وهذه هي أهم خطوة في المشروع ،وينبغي أن ينبري لها أوثق العلماء وأجلهم من متعددي الألسن والخبراء بسيميولوجيا اللغات.

ثالثاً : معلوم أن أصعب شيء في الترجمة هو نقل المصطلحات الخاصة بثقافة وبيئة معينة للسان آخر ،لكن للغة العربية تجارب سابقة ناجحة حيث تحولت بلاد واسعة للسان العربي كالعراق والشام ومصر ،كما تأثرت بها لغات بشكل كبير جدا كالتركية والفارسية والكردية والأمازيغية ،ودخلت مئات المفردات العربية في اللغات الأوروبية خصوصا بلاد الحوض المتوسط كإسبانيا وإيطاليا والبرتغال وفرنسا ،وتجربة المصطلحات الشرعية مع اللغات الحديثة معلومة كذلك حيث دخل مصطلح الصوم ورمضان والزكاة والحج والجهاد والاستشهاد والقِبلة والمسجد والجامع وسواها في الكثير من اللغات ،لذا فإنني أرى ضرورة تفعيل هذه القضية في الترجمات الحديثة للقرآن الكريم واقحام العديد من المصطلحات الأخرى مما ليس لها مرادف في اللغة الهدف بصورة تدريجية في النص المترجم مع شرحها في هامش الكتاب على أن تكتب

(١) وإن كنت أعلم أن علماء الأمة على التحريم كما بيَّن ذلك الزركشي والزرقاني بل ونقل فضل عباس والرومي الإجماع على التحريم ، وهذا ما يفتي به الأزهر ومعظم المجامع الفقهية .

بالحرف العجمي واللفظ العربي ،سواء أكانت مصطلحات أو سواها ، بحيث نقلل من استخدام المرادف الوصفي أو الجمل التوضيحية التي تقحم بين أقواس في النص كما في كثير من الترجمات .

رابعاً : يوم كان نشر الدين وتحقيق هداية القرآن الكريم الغاية الأسمى عبر التاريخ الإسلامي كانت الفتوى تتبدل لتناسب هذه الغاية وإن تعلقت بكبريات القضايا مما يحمل طابع الثوابت والمسلمات في عقول الكثير من المسلمين ،لذا رأينا عثمان بن عفان رضي الله عنه يتخذ قراراً مفصلياً في نسخ القرآن على حرف واحد ؛ استجابة لمصلحة العجم الذين يصعب عليهم الجمع بين الحروف ،ومحل الشاهد في كونه اجتهد وإن في مثل هذه القضية الكبرى ، تحقيقاً للمصلحة ،مع ملاحظة أنه كان الطرف الأقوى والدولة الأكبر ، مما حمل الآخر على تعلم لغته ولم يكن ثمة حاجة ماسة للترجمة كما في القرن الثاني حيث ظهرت فُتيا الحنفية التي أشرت إليها سابقا من جواز الترجمة بل الصلاة بالمترجم ، مما يفسح المجال للفقهاء المعاصرين أن يعيدوا النظر في قضية الترجمة الحرفية ؛إذ أكثر من ثلثي المسلمين من العجم وسوادهم الأكبر لا يعرف العربية .

خامساً : التدرج في الدعوة أصل أصيل في الشرع ، تقرره أحوال المدعويين ومصالحهم وما يناسب ظروفهم في كل مرحلة ،ولعل من مقتضيات دعوة العجم لا سيما الطبقة المتوسطة ثقافياً ومن دون ذلك وهم الغالبية أن نوفر لهم تواصلاً مع القدر الأكبر من النص القرآني على شكل مقاطع وأجزاء مؤدية وواضحة تغطي معظم أصول الإسلام وقواعده يستفيدون منها في صلاتهم ودعوتهم للإسلام في بيئاتهم المتعددة بل ويحفظونها كذلك للاستشهاد بها حيث يلزم .

سادساً : لا بد من وضع خطة دعوية توعوية وإقامة المؤسسات والمراكز الخاصة لتعليم اللسان العربي في بلاد العجم ،وليس شرطا أن يكون الهدف هو أن يتشكل لديهم قدرة على المحادثة مع العرب ،بل أن يصيروا قادرين على قراءة النص العربي وفهمه ؛ ليتسنى لهم من بعد فهم القرآن الكريم ،كما لا بد من التواصل مع البلاد

المسلمة ذات الألسن العجمية لإدخال اللغة العربية ضمن مناهجها –إن أمكن ،وتركيا نموذج في ذلك– وتفعيل دور الجالية العربية في تلك البلاد ؛ لإتمام المشروع واكتماله ،فاللغة الوسيطة أساس في أول الطريق.

والحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

١. إتقان البرهان في علوم القرآن ، فضل حسن عباس . دار الفرقان ، الأردن ،ط٢ ١٩٩٦م.

٢. الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ). تحقيق عصام الحرستاني ، خرج أحاديثه محمد أبو صعيليك ، دار الجليل ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨م .

٣. اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر ،فهد الرومي ،مؤسسة الرسالة/ بيروت ٢٠١١م .

٤. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، أبو السعود محمد بن محمد الحنفي العمادي (ت٩٨٢هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت١٩٩٩م .

٥. الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري المعروف بابن عبد البر (ت٤٦٣هـ). صححه وخرج أحاديثه عادل مرشد، دار الأعلام، ط ١، ٢٠٠٢م.

٦. أسد الغابة في معرفة الصحابة ،علي بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير،ت محمد معوض ،دار الكتب العلمية/ عمان ٢٠٠٧م .

٧. البداية والنهاية ،أبو الفداء إسماعيل ابن كثير ،مؤسسة الريان ، بيروت، ط٢ ، ١٩٩٦م.

٨. البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي . تحقيق أبي الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، بيروت ، ط١، ١٩٨٤م .

٩. تاريخ الرسل والملوك ،أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري ،دار المعارف ،القاهرة ،ط٢ ،١٩٦٧م .

١٠. ترجمة القرآن الكريم إلى لغات الشعوب والجماعات الإسلامية كتاب ضم أوراق

الندوة الدولية التي عقدت في آل البيت ١٩٩٨ م ١٤١٨هـ ، منشورات جامعة آل البيت ١٩٩٩م ، تحرير محمد الأرناؤوط .

١١. تفسير عبد بن حميد ، دار بن حزم ،ت مخلف العرف ،دار بن حزم ٢٠٠٤م .

١٢. تأويل مشكل القرآن ،عبد اللّه بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، دار الكتب العلمية ٢٠٠٧م .

١٣. التمهيد لما في الموطأ ،يوسف بن عبد الله بن عبد البر ،وزارة الأوقاف /المغرب ١٩٨٢م .

١٤. حاشية رد المحتار ،محمد أمين عابدين ،دار الفكر/ بيروت ١٩٩٢م .

١٥. الحضارات السامية القديمة ،سبتينو موسكاتي ،ترجمة السيد يعقوب بكر،دار الرقي / بيروت .

١٦. الدر المنثور في التفسير بالمأثور ،جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ،دار الفكر/ دمشق ،ط١٩٩٧١م.

١٧. الرسالة ،محمد بن إدريس الشافعي ،ت أحمد شاكر ،مكتبة الحلبي / القاهرة .

١٨. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ،أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي الألوسي ،تحقيق الأمهر والسلامي ،دار إحياء التراث العربي ،بيروت – لبنان١٩٩٩م .

١٩. السلسلة الصحيحة ، محمد ناصر الدين الألباني ،مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرياض .

٢٠. سنن أبي داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ) . دار الأفكار الدولية/الأردن ٢٠٠١م .

٢١. سنن الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي(ت٢٧٩هـ)، تحقيق أحمد شاكر ، الناشر ، مصطفى الحلبي ، ط٢ ، ١٩٩٩م .

٢٢. سير أعلام النبلاء ،شمس الدين محمد الذهبي ،ت الأرنؤوط ،مؤسسة الرسالة .

٢٣. سيرة ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك المعافري الحميري المعروف بابن هشام (ت٢١٣هـ). ، تحقيق مجدي فتحي السيد ، دار الصحابة للتراث ، طنطا ، ط٢ ، ١٩٩٥م .

٢٤. صحيح البخاري ،محمد بن إسماعيل البخاري ،مراجعة مصطفى البغا ،دار ابن كثير بيروت١٩٨٧م.

٢٥. صحيح مسلم ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت٢٦١هـ). مراجعة محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٥٤م .

٢٦. الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ،ابن قيم الجوزية ،ت محمد الدخيل ،دار العاصمة ١٩٧٨م .

٢٧. شرح صحيح مسلم ، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني النووي (ت٦٧٦هـ). دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٠م.

٢٧. شرح البخاري لابن بطال ،علي بن خلف القرطبي ،مكتبة الرشيد ٢٠٠٨م .

٢٨. العربية في اللغات الإفريقية من منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم / المعهد الثقافي الإفريقي بتونس ١٩٩٢ م لأوراق المؤتمر المنعقد بدكار ١٩٨٤ م تحت عنوان العربية في اللغات الإفريقية .

٢٩. العناية شرح الهداية ،محمد أكمل الدين البابرتي ،دار الفكر/عمان ٢٠١٠م .

٣٠. عيون الأثر في المغازي والسير ،محمد بن سيد الناس ،دار ابن كثير /دمشق .

٣١. الكامل في التاريخ والمثل السائر ، ضياء الدين محمد بن عبد الكريم ابن الأثير(ت٦٣٠هـ).ت عد الله القاضي، دار الكتب العلمية ، بيروت ط٢ ،١٩٩٣م .

٣٢. الكشاف عن حقائق التنزيل ، أبو القاسم جاد الله محمود بن عمر بن محمد

الزمخشري (٥٣٨هـ). دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٥م .

٣٣ . لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي ،دار صادر/ بيروت .

٣٤ . المبسوط ، شمس الدين أبو بكر محمد بن أبي سهل السرخسي ، دار المعرفة ، ط ١ ، ١٩٧٨م .

٣٥ . مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر،ابن منظور ،مجموعة من المحققين ،دار الفكر ،دمشق ١٩٨٤م .

٣٦ . مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (ت٧١٠هـ) . تحقيق زكريا عميرات ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٥م .

٣٧ . مسألة ترجمة القرآن ، الشيخ مصطفى صبري أفندي ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م .

٣٨ . المستدرك على الصحيحين ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري المعروف بالحاكم (ت٤٠٥هـ). تحقيق مقبل بن هادي الوادعي ، دار الحرمين ، مصر ، ١٩٩٥م .

٣٩ . المسند ، أحمد بن حنبل بن هلال الشيباني (ت٢٤١هـ) ،حكم الأرنؤوط ،مؤسسة قرطبة ،القاهرة.

٤٠ . مسند البحر الزخار ،أبو بكر البزار ت مجموعة ،مكتبة العلوم والحكم ٢٠٠٩م .

٤١ . مع المصطفى صلى الله عليه وسلم ،عائشة بنت الشاطئ ،دار المعارف ١٩٩٢م .

٤٢ . مكاتيب الرسول ، علي الأحمدي الميانجي ، دار مصعب .

٤٣ . مناهل العرفان ،محمد عبد العظيم الزرقاني ،دار الكتاب العربي /بيروت

١٩٩٥م .

٤٤. الموافقات ، إبراهيم بن موسى الشاطبي الغرناطي ،دار ابن عفان/عمان ٢٠٠٨م .

٤٥. نصب الراية لأحاديث الهداية ،عبد الله بن يوسف الزيلعي ،ت محمد عوامة ،دار القبلة /جدة ١٩٩٧م.

٤٦. النقد الأدبي أصوله ومناهجه ، سيد قطب ، دار الشروق / القاهرة الطبعة العاشرة ٢٠١٠ م .